الفكر في حضارة بلاد الرافدين

بلاد الرافدين نظرة تاريخية:

العراق هو ما نشير إليه قديما ببلاد الراقدين. عرفت هذه الحضارة عدة مدن كبيرة منها سومر وأكد وبابل وأشور. يرجع الدارسون أول استيطان لبلاد الرافدين إلى 7000 سنة قبل الميلاد سكنها مجموعة من القبائل البدائية البدوية في الشمال والجنوب. وكانت تعتمد على الزراعة والصيد. وهذه المراحل لم تؤسس لحضارة في بلاد الرافدين فلم يكن ممكنتا الحديث عن الحضارة إلا مع بدايات القرن 50 ق م. كان أثر وتأثير الشعب السومري كبيرا من الناحية الفكرية والثقافية فهو الذي اكتشف الكتابة التي تعرف بالخط السومري، التي استخدمها في تدوين معارفهم وقوانينهم ومعاملاتهم التجارية في ألواح طينية...إلخ. وقد شيدوا مكتبات ومعابد لحفظ هذه الألواح وقد عثر علماء الآثار على ما يقارب مليون لوح طيني مما يدل على اهتمامهم بالكتابة.

مع ازدياد عدد السكان انتقلت التجمعات السكنية من القرية إلى المدينة حيث شيدوا مباني كبيرة وعملوا على تزيينها وزخرفتها مما يدل على تمكنهم من فن العمارة. كما صاحب الانتقال من القرية إلى المدينة ظهور تنظيم السياسي كان يديره كبار القوم وتدل بعض الألواح القديمة على وجود مجالس عامة تسير شؤون الرعية. وكان دور هذه المجالس تشريع القوانين وتعيين الحكام والمسيرين وكذلك القادة في أوقات الحروب. كما كانت لهم تصورات دينية وأسطورية انتشرت في كل البلاد المجاورة(مصر، اليونان...إلخ) كما كانوا السباقين في تاريخ البشرية في تأسيس الأساطير والملاحم والأشعار والأغاني وتشريع القوانين...إلخ.

بعد السومريين جاء الكلدانيون والبابليون الذي واصلوا تشييد الثقافة والحضارة في بلاد الرافدين فكانت بابل أرقى المراحل التي عرفتها حضارة بلاد الرافدين. تعتبر مدينة بابل أشهر مدن بلاد الرافدين التي أسسها الملك حمورابي في حدود القرن 18 قبل الميلاد، لم تدم هذه المملكة طويلا فسقطت في القرن 16 ق م على يد الحثيون وبعد ذلك جاء الكاشيون وأعادوا توحيد بابل وسقطت سلالة الكاشيين على يد شوتروك-ناخونته وهزم هذا الأخير على يد الحاكم نبوخذ نصر الأول في حدود القرن 11 ق م.

في القرون التالية نشبت الحروب بين آشور وبابل وانتهت بقضاء آشور على بابل في حدود القرن 8 ق م. كانت الأشوريون أناس أشداء عرفوا بوحشيتهم وقسوتهم ونزوعهم نحو القتال، حتى إلاههم آشور كان رمز القوة

والبطش. لم يهتم الآشوريون بالثقافة وتقريبا كل ما كانوا يتداولونه من معارف جاءهم من البابليين. وقد عرفت آشور عدت ملوك من أبرزها سارجون، سنحريب، اسحردون.

في سنة 609 ق م سقطت آشور بعد اتحاد الميديين والبابليين فهزموا آشور شر هزيمة. وواصل الملك نبوخذ نصر التوسع على باقي المدن الآشورية سنة 605 قبل الميلاد إلى أن وصل إلى حكمه إلى سوريا. وفي سنة 539 قبل الميلاد سقطت بابل مرة أخرى على يد الملك الفارسي قورش و لم تقم لها قائمة بعد ذلك.

آلهة بلاد الرافدين:

ألّه سكان بلاد الرافدين الطبيعة ومظاهرها فالطبيعة عندهم تعج بالآلهة وتعيش في حيوية دائمة. وهذه الآلهة مرتبطة بالحياتهم اليومية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. فهناك آلهة مرتبطة بالاقتصاد مثل آلهة الماعز والسمك والقصب، وآلهة ترعى الحيوانات، وأخرى تضمن وفرة السمك الصيادين، وآلهة الزراعة والخصبة التي تضمن وفرة المحاصيل، وآلهة الأمطار...إلخ (هذه الآلهة المتعددة أرجعتها الديانات التوحيدية إلى إله واحد يرعى كل العالم وكل مخلوقات ويحيط بكل ما له علاقة بحياة الإنسان الاقتصادية والاجتماعية والأسرية والسياسية والصحية والأمن والسلام).

إذا كانت بلاد الرفدين عرفت العديد من الآلهة إلا أن هذه الآلهة لم تكن على درجة واحدة من المقام فهناك آلهة بالغة الأهمية وأخرى أقل شأنا. وكانت الآلهة المرتبطة بالسماء دائما هي الآلهة التي تحظى بقيمة أكبر من غيرها وتليها بعدها الآلهة التي تعنى بالعالم السفلي.

وتذكر الأساطير العديد من أسماء الآلهة منها:

- **آن** An أو (آنو) وهو إلهة السماء وكبير الآلهة وكان يتخذ شكل ثور عملاق ويسمع خواره في الرعد. وكان هو المسؤول عن انزال الأمطار(وتذهب بعض الأساطير إلى أن المطر الذي يترل ما هو إلا مني الإله آن الذي يخصب آلهة الأرض كي Ki والتي تجعل النبات والمحاصيل تنمو).
- **أنليل:** Anlil: إله الرياح والأعاصير، زعيم مجمع الآلهة ومنفذ مراسيمها. توجد صورتان حول الإله أنليل الألى صورة وديعة تتمثل في أنه إله مرتبط بالزراعة والاخصاب ودوره مهم في ترطيب المزروعات، وصورة أخرى مرعبة تتمثل في أنه إله الدمار والأعاصير.

- **أنكي** Enki (ويعني سيد انتاجية التربة) وهو إله المياه الجوفية العذبة. وكان السومريون يعتقدون أن هناك بحر تحت الأرض منها تدفق مياه الأنهار والوديان.
- **مردوك:** اله مدينة بابل، تصفه ملحمة الخلق اينوما اليش على أنه كبير الآلهة ومنظم الكون وخالقه.
- **آشو:** إله مدينة آشور وحاميها.
- **أوتو** : إله الشمس
- **نانا** : إلهة القمر.

وحتى ونتعرف على آلهة بلاد الرافدين أكثر نسرد بعض أساطير الخلق التي تعج بالآلهة:

أساطير الخلق والتكوين في بلاد الرافدين:

تقول الأسطورة السومرية أنه في البدء كانت الإلهة "نمو" وحيدة و لم يكن أحد معها، وهي تمثل إله الماء الذي انبثق منها كل شيء. فأنجبت الآلهة نمو توآما أحدهما ذكر يدعى "آن" (إله السماء) وأنثى تدعى أنكي (إلهة الأرض). فتزوجا وأنجبا "آنليل" إله الهواء. لقد كان آن وأنكي ملتصقان فصل بينهما أنليل (الهواء) فرفع آن إلى الأعلى فتكونت السماء وأنزل أنكي إلى الأسفل وبسطها فتكونت الأرض.

كان أنليل يعيش في ظلمة دامسة فأنجب "نانا" إله القمر ليضيء به السماء وينير الأرض. ومن بعد ذلك أنجب نانا "أوتو" إله الشمس الذي أضاء الوجود. وبعد ذلك اجتمعت الآلهة كلها مع أنليل لتخلق بعد ذلك كل الكائنات. (فكرة انبثاق الكون أو الحياة من الماء فكرة كثيرة التداول في الأساطير السومرية والبابلية القديمة وهي فكرة ليست خاصة فقد ببلاد الرافدين وإنما العديد من الحضارات القديمة مثل مصر واليونان القديم...حتى الكتب التوحيدية تذهب إلى أن بداية الحياة كانت من الماء).

وفي مسألة التكوين والخلق هناك قصة تذكر بداية الخلق في الملحمة البابلية إنيوما إليش التي يعود تاريخها إلى مطلع الألف الثانية قبل الميلاد، تروي لنا قصة نشأة الآلهة البابلية ومهامهم، وهذه الملحمة مكتوبة على سبعة ألواح فخارية.

تبدأ الملحمة كما يلي:" عندما في الأعالي لم يكن هناك سماء، وفي الأسفل لم يكن هناك أرض، لم يكن(من الآلهة) سوى آبسو أبوهم، وممو، وتعامة التي حملت بهم جميعا. يمزجون أمواههم معا...". هذه الملحة تروي لنا قصة بداية الخلق التي انطلقت من وجود ثلاثة آلهة في البدء هي: آبسو، ممو وتعامة. وهي كلها من الماء ممتزجة فيما بينهما.

فآبسو يمثل الماء العذب وممو الماء المالح وتعامة تمثل الأمواج المتلاطمة (وهناك من يقول أنها تمثل الضباب الصادر من هذه المياه). هذه المياه التي كانت في حالة سكون سرمدي تمثل المادة الأولى للكون التي انبثقت منها كل الآلهة الأخرى وكل الموجودات. فتناسلت هذه الآلهة فولد لـــ آبسو وتعامة إلهان هما: "لخمو " و"لاخامو"، وهذان بدورهما أنجبا "اشتار" "وكيشار"، وبعدها ولد لهما ابن اسمه" آنو" إله السماء. وأنجب هذا الأخير "أنكي" أو "آيا" اله الحكمة والفطنة الذي بلغ من القوة ما لم يبلغه آبائه وأجداده.

هذا التعدد في الآلهة خلق نوعا من الفوضى والصراع بين هذه الآلهة، فقررت الآلهة الأولى ممثلة في الإله آبسو ابادتهم جميعا، ولكن تعامة بحكم حنينها الأمومي على أولادها وأحفادها من الآلهة اعترضت على ذلك. وتفطن الآلهة الشباب بنوايا آبسو فقرر حكيمهم الاله "آيا" تخليصهم منه، حيث عمد إلى تنويم آبسو وسرق منه بعد ذلك تاجه ووضعه على رأسه، وبذلك أصبح هو المسيطر على كل الآلهة، وجرده بعد ذلك من ألوهيته وقتله، وانتقل إلى ممو الذي كان مناصرا لـــ آبسو فقيده بحبل يجره أينما ذهب. وبعد ذلك أنجب آيا الإله مردوخ الذي فاق أبوه قوة وبطشا.

وأمام هذا المشهد الذي أصبحت الآلهة الشباب هي المسيطرة على العالم تفطنت تعامة الآلهة القديمة إلى تمرد الآلهة الشباب فقررت القضاء عليهم، فجهزت جيشا من الكائنات المخيفة خلقتها خصيصا لمحاربة مردوخ وأبوه آيا ومن والاهم من الآلهة. فخافت الآلهة الشباب من كائنات شريرة، فقرروا أن يستعينوا بقوة مردوخ لحمياتهم والقضاء على تعامة وجيشها، ووافق مردوخ بشرط أن تمنح له امتيازات في السلطة والحكم فكان له ذلك. وبعد حرب شرسة بينه وبيه تعامة وجيشها استطاع مردوخ أن يقضي على تعامة وجيشها.

وبعد ذلك قرر مردوخ أن يبدأ في تنظيم الكون وإخراجه من حالة الهيولى التي كان عليه. فقرر أن يبدأ بخلق العالم، فقام بتمزيق جثة تعامة إلى شقين فرفع جزء منه إلى الأعلى فكانت السماء، وسوى الآخر فكانت الأرض. وبعد ذلك قام بخلق النجوم والشمس والقمر والإنسان والحيوان والنبات. وقسم الآلهة إلى قسمين آلهة تدير السماء وأخرى تدير الأرض. وبعد أن فرغ من خلق الكون اجتمعت الآلهة كلها تحتفل بمردوخ سيد الكون فأسسوا له مدينة وهي بابل و أنشأوا في مركزها معبدا يناطح السماء.

علاقة الدين بالسياسة:

علاقة الدين بالسياسة متداخلة في بلا الرافدين فلم يكن الملك ملكا دون تعيين من طرف آلهة المدينة ومباركة الكهنة، وكان الخروج عن الملك هو خروج عن قانون الآهلة نفسها. ومن أجل تبجيل الآلهة واعلاء مقامها كان الملوك حريصون على تشييد معابد للآلهة وتقديم القرابين لها، وكان الكهنة خدام المعابد يلعبون دور الوسيط بين الآلهة والرعية. ووراء هذا المناصب كان الكهنة من أغنياء البلاد حيث كانوا يستحوذون على غنائم القرابين من الذهب والفضة والحبوب وغيرها، وكانت لهم آراضي شاسعة وعبيد كثر، وأحيانا كان الكهنة أعظم نفوذا من الملك نفسه. فقد يحدث أن يموت الملك ولكن هيئة الكهنة باقية وخالدة. كانت الآلهة كثيرة في بابل فكل مدينة لها آلهتها وكانت أحيانا تتجلى على هيئة بشر وكانوا يراودون النساء الصالحات ليلا والانجاب منهن، وهو ما كان يمثل نوعا من الدعارة المقدسة فالنساء يتقربن إلى الآلهة من خلال منح أنفسهن للمعبد.

الأخلاق والقوانين في بلاد الرافدين:

هناك عدت مصادر يمكن أن نتعرف على المنظومة الأخلاقية والقانونية التي كانت سائدة في بلاد الرافدين منها:

ملحمة جلجامش: هي قصة تعود إلى 2500 سنة ق م تروي لنا قصة رجل اسمه جلجامش ثلثاه اله وثله انسان يقال أنه من نسل شمش-نيشتين الذي نجا من الطوفان وهو ملك مدينة ورك. كان ملكا طاغية شكته الآلهة إلى اشتار لأنه كان يرغم الرعية العمل ليلا في بناء الأسوار، وكان يباشر الزوجات قبل الأزواج وكان يحضى باللية الأولى ولا يترك زوجة لزوجها ولا عذراء لأمها. وتذهب اشتار إلى أورورو تطلب منها خلق رجل مساو لجلجامش فصنعت انكيدو الذي فضل العيش لوحده مع الحيوانات. وذات يوم أراد الصيادون القبض على انكيدو.....إلخ

قوانين حمورابي: وهي قوانين وضعها الملك حمورابي تعود إلى القرن 18 ق م....إلخ